خيوط اللعبة

شكراً نتنياهو

سامي كليب

لم يصدق قائد اسرائيلي مع العرب بقدر صدق بنيامين نتنياهو. ولم يخدمهم قائد اسرائيلي سياسياً بقدر ما خدمهم نتنياهو. ولو كان للعرب أن يختاروا رجل العام لربما اختاروه. لعله بقراره الغبي الأخير ضَرْبَ مجموعة من شباب حزب الله وجنرال ايراني من الحرس الثوري في الجولان، قدّم هدية سياسية واستراتيجية هائلة لايران وسورية والحزب.

نتنياهو صادق مع العرب لأنه، منذ وضع كتابه «مكان بين الامم»، وهو ينفّذ حرفياً أفكاره. مختصرها، كما أوضحها هو نفسه، «لا دولة فلسطينية. لا قدس. لا مجال امام الفلسطيني سوى القبول بدولة يهودية. الاردن وطن بديل. لا عودة الى حدود 1967. العرب لا يفهمون سوى بالقوة». (ربما على العرب اليوم أن يعودوا الى قراءة هذا الكتاب بامعان).

نتنياهو صادق أيضاً لأنه لا يزال يعتبر ايران أولاً، ثم سورية وحزب الله، في طليعة أعدائه. أثبت بعدوانه الاخير في الجولان انه لن يقبل مطلقاً أن تمضي أميركا وخلفها الغرب في توقيع اتفاق نووي. ها هو، اذاً، ينفّذ ما وعد به دائماً من أنه سيتصرف وحده حتى ولو لم تقبل أميركا.

صِدقُ نتنياهو يخدم محور المقاومة خصوصاً في هذه المرحلة المفصلية. فهو أعاد شيئاً من التعاطف العربي مع حزب الله، وبعث شيئاً من الشعور القومي عند السوريين، وأكد مقولة المحور الممتد من موسكو الى طهران فسورية ولبنان بأن لاسرائيل مصلحة كبيرة في تدمير سورية. وصدقه خدم أيران أيضاً لأنه سلَّمها مفتاحاً مهماً في التفاوض. للمرء مثلاً أن يتخيل الآن المبعوثين الأميركيين يهرعون الى طهران آملين باقناعها عدم الرد. والقيادة الايرانية ذات الخبرة الواسعة والقديمة في فنون التفاوض، ستحرق أعصاب الاميركيين واسرائيل بعدم الافصاح عما ستفعل. هي كانت مهّدت لهذا الهلع الغربي والاسرائيلي، بتصريح من قائد الحرس الثوري الجنرال محمد علي جعفري هدّد فيه اسرائيل بـ «صاعقة مدمرة».

سعى نتنياهو للافادة من الهجمات التي تعرضت لها مجلة «شارلي ايبدو» ومتجر يهودي في فرنسا، فجاء يتصدر طليعة المتظاهرين ضد الارهاب. لعله كان يخفي يده في جيبه لأن دماء أبرياء غزة كانت لا تزال عليها. حاول أن يعيد تلك الصورة البايخة التي درجت الدعاية الصهيونية على نشرها حول «اسرائيل الضحية». الآن تُصدر الأمم المتحدة تصريحاً واضحاً بأن اسرائيل هي المعتدية في الجولان وهي التي تخرق القرارات الدولية.

وصِدقُ نتنياهو سمح لحزب الله بالتمتع الآن بذريعة ممتازة للرد حين يشاء وأينما أراد. هذا كان قبل العدوان الاسرائيلي الاخير على الجولان صعباً، نظرا لانقسام اللبنانيين حول الأمر ومعاداة قسم منهم للحزب ولمفهوم المقاومة، خصوصا بعد اشتراك الحزب بالحرب في سورية.

وصِدقُ نتنياهو، أيضاً وأيضاً، جعل «حمائم» السلام والتفاوض الفلسطينيين ييأسون منه، فيتحدّون تهديداته ويذهبون الى مجلس الامن للاعتراف بدولتهم، ثم الى محكمة الجنايات الدولية. وصلت الحمائم الى هذه الخلاصة بعد ان نتف نتنياهو ريشها واحدة بعد الاخرى، ولم يقدّم لها سوى مزيد من المستوطنات في مكان وتدمير آلاف البيوت على أهلها في غزة.

وصِدقُ نتنياهو، أخيراً، كشف للمجتمع الاسرائيلي أن الرجل مستعد للتحالف مع الشيطان، وليس فقط مع غلاة التطرف والتشدد الديني والعنصرية في بلاده للبقاء في السلطة. الآن بقاؤه أو عدمه صار بيد ايران وحزب الله.

فهل ثمة من يستحق الشكر على توضيح الصورة أكثر من نتنياهو؟ يوماً ما قد تفهم اسرائيل ان الشبان في عمر الورود، كجهاد مغنية، لا يستشهدون حباً بالموت، بل لأن وجوههم النضرة وأياديهم الطرية تحب الحياة... بكرامة.

الكنيست إلى التفرغ للتداول في «الأزمة الأمنية المقبلة»، وتحديداً التهديدات العلنية لإيران وحزب الله، وطرحا مجموعة من الأسئلة يجب على من أصدر قرار الهجوم الإجابة عنها: هل كان (جهاد) مغنية هدف الهجوم أم أن القرار يشمل أيضاً التعرض لحياة الجنرال الإيراني (العميد محمد علي الله داد)؟ وهل علمت الاستخبارات الإسرائيلية بالفعل بوجوده في الموكب؟ وهل أضرار بقاء مغنية تزيد على الأضرار المحتملة لاغتياله، مع إمكان تدهور الوضع الأمني مع حزب الله؟ وأضاف هرئيل أنه يجب أيضاً الإجابة عن مدى جاهزية الجبهة الداخلية الإسرائيلية لمواجهة احتمال نشوب الحرب التي يهدد حزب الله بأنه سيطلق خلالها عشرات الآلاف من الصواريخ في اتجاه المراكز السكنية الإسرائيلية، وكذلك الإجابة عن الاستعدادات المسبقة لمواجهة كهذه ونوعية الخطط العملية للجيش في المعركة.

وانتقد معلق الشؤون السياسية في «يديعوت أحرونوت»، ناحوم برنياع، الاعتداء في القنيطرة، مؤكداً أنه يعاني خللاً واضحاً. وأوضح: «الحدث في الجولان السوري وقع نتيجة خلل. والاعتذار من محفل إسرائيلي مغفل أمس (الأول)، بأن الجنرال الإيراني اغتيل خطأ، لم يغطِّ على الخلل الأول، بل فاقمه. وهو دليل على أن الإعلاميين المشككين ليسوا وحدهم من يعتقدون بأن الخلل قائم، بل وأيضاً محافل في المؤسسة الأمنية». وأضاف أن «من المحتمل أن تكون العملية قد شابها خلل عملياتي، وخلل في عملية اتخاذ القرارات، إذ لا يمكن تنفيذ عمل كهذا من دون إذن من المؤسسة السياسية، أي رئيس الوزراء ووزير الدفاع، ما يعني أن القيادة السياسية هي المسؤولة في نهاية المطاف».

معلق الشؤون العسكرية في «يديعوت أحرونوت»، اليكس فيشمان، أشار من جهته إلى أن تعامل إسرائيل مع العملية تحول من ارتباك إلى ذعر، إذ بدت إسرائيل كشخص مصاب بمرض انفصام الشخصية، فمن جهة لا تعترف بأنها شنت الهجوم، ومن جهة أخرى تعترف بأنها اغتالت الجنرال الإيراني خطأ، أي جراء الهجوم الذي لا تعلن مسؤوليتها عنه!

صحيفة «إسرائيل اليوم»، المقربة من بنيامين نتنياهو، تصدّت للدفاع عن قراراته ومحاولة إسكات المنتقدين، بذريعة المصلحة الإسرائيلية، وأشارت في مقال تحت عنوان «على إيران الكفّ عن إطلاق التهديدات»، إلى أن إسرائيل لا تستطيع التوقف عن محاربة التنظيمات الإرهابية، وليس لها إلا أن تقوم بين حين وآخر بإرسال رسالة إلى زعماء الإرهاب، بأنهم لا يستطيعون العيش بأمن مطلق.

ابراهيم الأمين

عشق

بعد انتهاء مراسم دفن الشهيد عماد مغنية، قبل نحو 7 سنوات، اجتمعت العائلة في منزل الجدّ. ومع قليل من الهدوء، سمع الحضور سؤالاً مباشراً: من منا سيخرج غداً ليقول للجميع، للأهل والرفاق، وللعدوّ، بصوت عال: نحن لم نُقتل؟

نظر الجميع إلى مصطفى، الابن البكر للشهيد الكبير. مصطفى رفيق والده. كان إلى جانبه في كثير من الرحلات والأوقات. ربما سمع منه الكثير بما يزيد على ما سمعه بقية إخوته. لكنه لم يتأخر في إجابة واضحة: لست أنا من يصلح لهذه المهمة!

كان واضحاً، لمن بيده القرار في تلك اللحظات، أن مصطفى يرسم لنفسه الإطار الذي يحبّ، وأنه يريد أن يُعفى من هذه المهمة. التفت الجميع صوب جهاد. الشاب الصغير الذي يتوسّط مصطفى وفاطمة. عرف أن الخيارات تضيق أمامه. ربما كان أكثر استعداداً لمهمة من هذا النوع. وافق... وجرى ترتيب الخطاب والتدرب عليه.

عندما اعتلى المنبر، لم يكن أحد يتوقع أن يطل على الجموع كرجل أكبر من عمره. لم يكن هادئاً فحسب. بل كان خطيباً مقنعاً بـ«إننا لم نقتل»!

من عرف الشاب جهاد في تلك الفترة، عرفه صبياً شقياً. يحظى بتسامح الأهل، ولكنه يخضع لرقابة عين حنونة، إنما حازمة. تلك العين التي تجعله في موقع الملاحق من قبل الآخرين. كان مصطفى يستمر في الابتعاد عن الأضواء أكثر. بينما كان جهاد الذي وقع عليه الاختيار بالتصدي لمرحلة ما بعد «الانكشاف على الضوء» يركض هنا وهناك، ملازماً فاطمة التي وجدت نفسها، فجاة، تقوم بدور الشاهدة على عصر أبيها.

أشياء كثيرة تفرض نفسها كقانون على هذه العائلة. عيون العدوّ تطاردها من دون توقف. فيها من الشهداء مقدار ما فيها من الصبر والاستعداد لما هو أكثر. يكفي الاستماع إلى أم عماد، والنظر في وجه الحاج فايز، حتى تتعرف إلى عنوان حكاية لم تُكتب بعد، وصار جهاد فصلاً فيها.

الشاب الحيوي، دفعته لحظة الخروج إلى الضوء نحو اختبارات مكثّفة في أبواب كثيرة. مع الوقت، لم يكن ممكناً قمع الاندفاعة التي تقوده إلى التطوّع لأدوار كثيرة. المسألة، هنا، لا تتعلق، فقط، بكونه ابن «قائد الانتصارين»، بل لأنه يحصل على فرصة إثبات الذات في مواجهة متطلبات صعبة. كان جهاد يسعى إلى انتزاع صفة الوريث الشرعي لمسيرة لا يحتاج من ينتمي إليها، لمن يشرح له أن الجائزة الكبرى فيها، هي الموت شهيداً.

■■■

على مرتفع يقرّبه من الله، عاش «ابو عيسى» حياة الجبل. لم يملّ من السير فيه، صعوداً ونزولاً، فخطّط لان يكون منزله قبالته، كأنه حارسه الابدي، من زاوية ينظر منها الى البعيد. يخفيه كرسي صغير، تحت سنديانة، تشبه لكل الاشجار التي اخفته كل الوقت عن عيون العدو.

جيل بأكمله من المقاومين الاوائل تعلم معه «ابو عيسى» احرف المقاومة الاولى. وجيل ثان سار خلفه متقدماً المسير لمطاردة العدو في أرض الجنوب. وجيل ثالث رافقه في رحلة حماية المقاومة من اعداء الداخل المتصلين بعدو الخارج الاول.

حكاية «ابو عيسى»، مع الجبل ومع المقاومة، طويلة جداً. مرت سنوات على انغراسه في ارضها، ورحلته طالت الى اكثر مما توقع. وُلد من اب سوري وام لبنانية عاش معها حياة بلدتها واهلها. الى أن كانت لحظة، قل هي صدفة او هي قواعد محفورة في زاوية ضيقة من العقل او حكمة الهية، دفعته، بعد جولات في لبنان والعراق وسوريا، الى حيث كان استشهاده، كما رغب، على ايدي الصهاينة الذين طاردهم، حتى سقط شهيدا في أرض الآباء والأجداد.

صفاء، ام عيسى، المرأة الصاحية بكل حواسها تعرفه جيدا. تعرف انه منذ تعرف اليها، ظل يتركها في ليل او غروب، ويهرب الى عشيقته الدائمة والمعلنة. لم تكن صفاء اشطر من المقاومة في اغوائه. خافت عليه كثيراً. اما هو، فكان يضحك، ويدرّبها على ملاقاته شهيدا.

لم تكن صفاء لتقوى على عشقه الحقيقي. وكأن الله ارادها مستعدة ليوم منتظر. فصارت تحلم به شهيداً، وتقيم له مجالس العزاء، ولو في نومها. حتى انها تدرّبت على رثائه. لكنها أفاقت، في لحظة، مع نقرة في القلب، لتحمله هي، وفي بطنها طفله الذي شهد كيف تعلن الام - الرفيقة نهاية مشوار العشق الدائم، وبما يليق بعاشقين، ثم تزفّه عريسا للمقاومة.